أنة عاجز

* * *

في سكون الليل جلست الى وحدتي حزيناً ، مفكراً في حال قومي ووطني

في سكون الليل نظرت من خلال الظلام الكثيف علي أرى بصيص امل ينعشني فلم ابصر الا ظلاماً دامساً يزداد ادلهاماً ووحشة كلما امعنت النظر اليه . وتلمست خوافي المستقبل بيد الامل فعادت يدي فارغة خائرة

رفعت عيني الى السماء من حيث يأتي العون فرأيت ابوابها مغلقة والصمت حارسها ، وهي تنظر نحوي بوجه عابس وترمق الكون بعيون النجوم الوقحة ولا أثر فيها للرحمة .

حولت طرفي الى اخواني الناس ... ولم تك الا هنيهة حتى عاد طرفي حسيراً . فاغضيت على القذى .

. . .

في سكون الليل أغمضت عيني على قذاها وجلست صامتاً أفكر في حال قومي .

آلا ، ما اهول الحياة في مملكة الصمت ! وما أفظع ما يقاسيه انساً ثرثاراً !

في سكون الليل — ليل التراخي والعجز — جلست صامتاً ، أنظر في قلبي الى مشهد لا يقوى العيان عَلَى حجبه ، ولا البعد عَلَى ستره

هنالك في مكان قصي عن عيني ، قريب من نفسي — في مكان ندعوه وطناً ، ويستحي ان يدعونا ابنـاءه رأيت قومي خاشعين مضنكين ، وقد احاقت بهم جيوش الخوف والهم والضعف واليأس والموت واثختتهم جراحاً ، ولا مهرب لهم منها ، ولا معين لهم عليها .

هو الجحيم ما قد رأيته — جحيم الهول والفناء قد انشقت عنه الارض فاندلعت منه ألسنة الهلاك لا تبقي ولا تذر

أطبق الروع عيني بصيرتي فاتصل بسمعي أنّات يأس وصرخات هول وهتاف استغاثة أليم — تلك اصداء آلام يتكبدها اهلي وحشرجة نفوس يلفظها قومي . هي اصوات قلما تؤثر في مسامع النازحين لبعدهم عنها ، بل قلما يشعر بها القساة لانهم صموا آذانهم دونها ، بل لا يبالي بها الا من كانت له حماسة للانخراط في المعركة المحتدمة بين قومي والفناء

لم يحم قط وطيس قتال كهذا في تاريخ الاحزان والحروب . عَلَى انه في هذه الدقائق التي يقسم بها القضاء حظ أمتي ويضع حداً فاصلاً بين حياتها ومماتها ، فاما يبقيها ، واما يفنيها ، أنظر ، فأجد من حولي اناساً من لحمي ودمي واقفين يتفرجون غير مبالين

ألا ، كيف يستطيع الانسان ان ينظر الى اهله واحبائه وقومه يموتون ويسمع باذنه أنّاتهم ولعناتهم دون أن يأتي بشيء ! .

ألا ، كيف ينام المرء ملء عينيه آمناً وهو يعلم ان له أخاً يزدرد المرارة ويغص بريقه الناشف !

وكيف يجلس المهاجر المتراخي مرتاحاً ، ساكن البال ، غير مشعر بتصوره وتبكيت ضميره مضطجعاً على فراشه الوثير ، متظاهراً بالطمأنينة ، متمتعاً بلياليها ، لا يفكر بشيء ؟

ألا يسمع عويل الاطفال الجائعين وأنين الشيوخ المدنفين ؟ ألا يشعر بالايدي الممدودة ، والارواح المناجية ، والعيون الصارخة ؟

ألا يرى دموع الامهات يسللنَ بها الاطفال ، يرجين الفرج والموت بالباب ؟ ألا يعلم ان قومه يأكلون التراب ؟

أقول هذا صامتاً ، وأصغي الى اصداء نفسي فأسمع بالقرب نحيباً ووجيباً ، وزفرات وأنّات ، ولا ادري الا بعد حين أن الباكي هو انا ، وأن العويل عويلي يشق جوانحي ويمزق صدري ، واني انتحب لحال قومي ، وابكي على نفسي مستاء من ضعفي ، مشعراً بقصوري وعجزي امام هولَ النكبة ...

. . .

في سكون الليل سمعت باذني رنة المطرقة على مسامير الصليب فذرفت دمعي وانا انظر الى « الجلجلة » من بعيد

رأيت سوريا تقاد الى الصلب عريانة ، مهانة ، تُجلد بسياط السخرية وتكلل باشواك العار وتشرب من مرارة الهلاك .

كم مرة سيقت سوريا الى الصلب فاستشهدت على عيون التاريخ . وكم مرة صعدت الى المحرقة فكانت ذبيحة تكفير عن وجودها . وكم مرة دفنت حية في أعمق الارماس . ولكن طغاة الفاتحين وفي طليعتهم نبوخذنصر القاسي وفي مؤخرتهم تيمورلنك العاتي لم يعبثوا بسوريا بعض ما عبثت بها يد النكبة الان ، ولم يدقعوها بسنابك خيلهم كما أدقعتها وطأة وحش الجوع والويل .

من هام الجبال وقاع الوديان ، من السهول المطمئنة والحزون النائزة ، من مراتع الحضارة ومسارح البداوة ، من كل مدينة وقرية في سوريا يسير موكب الويل على درب الصليب متجهاً نحو « جلجلة » الموت يسوق امامه بسياط الجوع شعوب سوريا — كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها ، مؤمنها وكافرها ، عالمها وجاهلها ، صالحها وشريرها .

على درب الصليب يسير حاضر سوريا ومستقبلها . وعلى هذا الدرب يقف بين الآونة والاخرى كل من يرزح تحت اثقال صليبه . يقف وينظر الى الجهات الاربع مستغيثاً وليس من يناوله منديلاً ليمسح به عرقه الدموي

ويلاه ! ما اكثر الرازحين ، الواهنين ، الساقطين تحت صليبهم الثقيل ، وما أقل الرسل المخلصين !

في هذا الموكب يسير رجال المستقبل الى الفناء وفيهم اعاظم امة جديدة . فيهم بناة التاريخ ، فيهم غطاريف الحرية ، فيهم الانبياء وابناء الانبياء الذين عينوا ان يكونوا رسلاً لدين جديد في عصر لم يأت .

في هذا الموكب تسير اشباح الغابرين تتكلم بلسان الحاضرين ، ناطقة بلسان التوجع والانين .

وما أقل السامعين !

. . .

في سكون الليل على درب الصليب رأيت المصيبة تدغم الماضي في المستقبل ، وسمعت خيالات الغابرين ، بل اصوات الحاضرين ، بل ارواح الآتين تنادي وتستغيث ، فدبت في دمي رعشة خادة حين رأيتهم يقفون افراداً للراحة عند الحضيض فيقول كل هتافه ويمشي ولا مجيب الا الصدى الرهيب حين يردد وراءهم ما قالوه . وهاك بعض ما سمعته

— انا يوسف بن يعقوب . انا الذي خزنت القمح للناس واطعمتهم في سني الجوع السبع . فما للناس لا يطعمونني ما يسد رمقي في هذه السنين؟

— انا سليمان الحكيم — انا ابن داود وامرأة اوريا — انا ابن القوة والجمال . كانت خزائني تضيق بالذهب والجواهر ، وسفني ترزح بما عليها من النفائس . وها قد جعت الان واستسهلت الاستعطاء . ألا من يتصدق على الملك الشحاذ ؟

— انا يهوديت الارملة غادة بيت فلوى . سحرت اليفانا قائد الاشوريين بجمالي وقتلته وبددت جيشه لاحفظ شعبي واصون عرضي . ولكني الان أبيع هذا وذاك لانال كسرة من الخبز

— انا مريم ام يسوع . مات طفلي البارحة جوعاً . ورأيته يقاسي في

معهده من الالم ما ليست عنده عذابات الصليب بشيء .

— انا مريم المجدلية تلميذة الناصري . كان فيّ سبعة شياطين قبل ان يلمسني المعلم ، ولكن وطأتهم لم تكن شديدة كوطأة شيطان واحد احتمله الان يدعى الجوع .

— نحن العذارى الخمس العاقلات . قد جفّت مصابيحنا من الزيت ويبست افواهنا من الجوع ، ولا نزال ننتظر قدوم العريس . فاين العريس؟ الموت ؟

— انا يهوذا من اسخريوط . الجوع أقسى من الخيانة . ورحمة يا ناس وان لم اكن استحق الرحمة . لم يبق معي سوى هذه الثلاثين من الفضة التي بعت بها المسيح . أما من يبيعني بها رغيفاً ؟ ألعل الرغيف أثمن من المسيح؟

— انا غاليوبال السوري امبراطور الرومان ، ولكنني اليوم جوعان . خذوا تاجي والصولجان وجواري الحسان واطعموني ولو على سبيل الاحسان

— انا ابو العلاء ضرير المعرة . تصدقت عليكم بشعري وفلسفتي . فهل من يتصدق برغيف عليّ ... على الشيخ ... الاعمى ... الشحاذ

هذا بعض ما سمعته حين رأيت الماضي والمستقبل يسيران على درب الصليب . ثم سمعت طرق المسامير ثم ساد السكون

كل شيء ابتدأ بالسكوت فهل ينتهي به كل شيء ؟

. . .

في سكون الليل البهيم المخيم فوق سوريا يصعد شيطان الويل من هاوية

الشقاء فينفخ الروع في الارواح والالم في الاجساد والظلمة في الابصار

ثم يبسط جناحيه الاسودين الكثيفين في عرض الجو ساتراً بهما ما على وجه الغبراء من الويل متلقفاً أنّات البائسين واستغاثات المنكوبين ، حائلاً دون وصولها الى عرش الله وآذان المحسنين

وفي الاسفل تحشرج الارواح وتتشنج الاجسام وتتراكم الجثث ويعد المدفنون يد الضراعة صامتين

وبعيداً — ما وراء البحار اخوان اولئك البائسين يرتعون في أحسن الراحة وبحبوحة الهناء ويستعذبون لذة البقاء فهل يسمعون هتاف الويل في سكون الليل ؟

وهل يمدون يد الرحمة لطرد النقمة ؟ ام يغسلون ايديهم تبرءاً من دم البار ؟ أم يأتون القبر باكراً — متأخرين — بالطيوب ؟

. . .

كل شيء ابتدأ بالسكوت فاذا كان مقدراً ان ينتهي به أجل سوريا الان فما اجدر قومي ان يموتوا في عجزهم ساكتين